

توظيف الأحلام (الرؤيا المنامية) في الرواية الليبية نماذج روائية
د. زينب الحراري عبد النبي جرجر - قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية
جامعة طرابلس- كلية التربية طرابلس

الملخص:

بحثنا في هذه الدراسة والتي تحمل عنوان (توظيف الأحلام - الرؤيا المنامية في الرواية الليبية - نماذج روائية) إمكانية توظيف الرؤيا في الرواية العربية الليبية، وأبرزها رواية التبر لإبراهيم الكوني، والأرامل والولي الأخير لخليفة حسين مصطفى ضمن بعض المقاطع السردية، فبدأنا المقدمة والتي احتوت على خطة البحث وعرض محتوياته من إشكالية البحث وأهدافه ومناهجه وبعض الدراسات السابقة، ثم جاءت التوطئة للتعريف بالحلم وعلاقته بالرواية بشكل مختصر، وبعدها تطرقنا لتوضيح الأسباب التي جعلت الكتاب يلجأون إلى توظيف الأحلام (الرؤيا) في كتاباتهم الروائية. وبعد ذلك تعرضنا إلى أهمية الرؤيا المنامية في السرد الروائي، وأهميته للكاتب، والشخصية في الرواية، إذ يلجأ إليه الروائي، ليعبر به عن أفكاره وعرض قضاياها. وبعدها أيضاً عرضنا لنماذج روائية عن الأحلام والرؤيا المنامية من الروائيتين. ثم الخاتمة التي استخلصنا فيها لأهم النتائج لهذه الدراسة، ويتبعها قائمة لأهم المصادر والمراجع.

Employing dreams (dream vision) in the Libyan novel

Narrative models

Doctor Zainab Alharari Abdul nabi Jarjar

University of Tripoli - Faculty of Education Tripoli

Department of Arabic Language and Islamic Studies

Summary

We researched in this study, which bears the title (Employing Dreams - Vision in the Libyan Novel - Novel Models) the possibility of employing the vision in the Libyan Arab novel, most notably the novel Al-Tabr by Ibrahim Al-Koni, and the widows and the last guardian of Khalifa Hussein Mustafa within some narrative passages, so we started the introduction, which contained the research plan and presented its contents of the problematic research, its objectives and methods, and some previous studies Then came the introduction to the definition of the dream and its relationship to the novel in a brief way, and then we touched on clarifying the reasons that made writers resort to employing dreams (vision) in their fictional writings. After that, we were exposed to the importance of the dream vision in the narrative, and its importance to the writer, and the character in the novel, as the novelist resorts to it, to express his ideas and present his issues. Then we also presented novel models of dreams and visions from the two novels. Then the conclusion in which we drew the most important results of this study, followed by a list of the most important sources and references.

المقدمة:

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
مهما تعددت طرق التوظيف في بنية الرواية وبحسب قدرة الكاتب الإبداعية والتخيلية، إلا أن كتاب الرواية اتجهوا إلى توظيف الأحلام أي (الرؤيا المنامية) في كتاباتهم الروائية، فهي السبيل للانطلاق في عملية التخيل السردية.
وإذا كانت إشكالية البحث قد جاءت من طرح السؤال منذ البدء من خلال التوطئة التي عرضناها وهو ما حقيقة الأحلام والرؤيا المنامية في الفن الروائي وخاصة التاريخية منها؟، وبهذا الإشكال قامت الدراسة عليه لفهم ما تتضمنه هذه الرؤى من حقائق، وما تسهم فيه من تحريك الشخصيات وفق الرؤية التي إرتأها الكاتب منذ البداية، والتي رسم بها بنية السرد لما له من دلالات كثيرة في مسارات السرد.

ولهذا كان هدفنا من دراسة (التوظيف الأحلام - الرؤيا المنامية في الرواية الليبية - نماذج روائية) هو التوغل في بنية السرد في الرواية، وإذ يعتبر من أهم الواقع لدراسته هو معرفة مدى اعتماد الكاتب على هذا التوظيف، ومدى علاقة الحلم والرؤيا بالكاتب، وكيفية جعلها اسقاطات ذات نظرة مستقبلية تخدم بنية النص الروائي في بعض الأحيان، أو علاقته بالحدث حين يرتبط الحلم والرؤيا بالشخص في الرواية منذ البداية وحتى النهاية.

كما يمكن لهذه الدراسة أن تعرفنا على خاصية الرؤى وارتباطها بإصناف الروايات وأكثرها التاريخية، والتي غالباً ما تتضمن توظيف الأحلام والرؤى حين تسير مع الحدث على وتيرة واحدة، ومع تحركات الشخصية البطل في الرواية.

أيضاً التعرف على الصياغة السردية لبنية النص الروائي، إذ تعتبر اللغة من أهم المقومات والعناصر الأساسية للرواية، إذ يعتبر توظيف الأحلام من الأدوات التي يستخدمها الروائي في تتبع الشخص في السرد الروائي.

أما مناهج التي كانت عليها الدراسة، فقد اعتمدنا على المنهج التحليلي والوصفي، والتاريخي، لما لهم من الأهمية في عملية التحليل والوصف، والتتبع التاريخي للأحداث السردية في بعض الأحيان. وعن هيكل البحث، والذي تضمن عنوان (توظيف الأحلام - الرؤيا المنامية في الرواية الليبية نماذج روائية) ، فقد بدأنا الدراسة بتوطئة عن توظيف الأحلام في الرواية، وكانت موجزة جداً ، ثم عرضنا عناوين فرعية منها : أسباب توظيف الأحلام - الرؤيا المنامية في السرد الروائي) ، تم عنوان آخر يحمل : أهمية الرؤيا المنامية في السرد الروائي، وبعدها عرضنا نماذج روائية في توظيف الرؤيا المنامية في رواية التبر لإبراهيم الكوني) ثم توظيف الرؤيا المنامية في رواية الأرامل والولي الأخير لخليفة حسين مصطفى، وبعدها خلصت الدراسة إلى أهم النتائج ، فكان ذلك خاتمة البحث ، ثم قائمة المصادر والمراجع التي استفادت منها الدراسة.

وقد تعرضنا من خلال الدراسة لبعض الدراسات السابقة حتى وإن لم نجد دراسة عن هذا الموضوع، وفي الروايتين بالتحديد، ولكننا وجدنا دراسات لبعض الجوانب منها، وعلى سبيل المثال: دراسة نادر أحمد عبد الخالق – الشخصية الروائية بين على باكثر ونجيب الكيلاني دراسة موضوعية وفنية، ودراسة حسن البنداري – البنيات الكاشفة عند نجيب محفوظ، كما اعتمدنا على الشرح والتحليل من خلال روايتي – التبر لإبراهيم الكوني، والأرامل والولي الأخير لخليفة حسين مصطفى نماذج منها.

توطئة:

اهتم الإبداع الفني الروائي بتوظيف الرؤيا المنامية (الحلم) في الرواي "بوصفه طريقة تعبيرية بعيداً عن الصحو، تلجأ إليه الشخصية الفنية للتححرر من قيود الواقع، والانزياح عنه قصد تحطيم نمطيته ورتابته، إذ يعد الحلم أداة الشخصية الأساسية، لتحقيق متمنياتها". (1)

ويسير الحلم مع الحدث حتى النهاية، إذ تساعد الرؤية (الحلم) في تطور الأحداث، "ففي الرواية التاريخية غالباً ما يرتبط الحلم بالشخصيات الدينية والأحداث التاريخية الثابتة، وفي الرواية الاجتماعية يرتبط الحلم برفض الواقع والمطالبة بإصلاحه". (2)

والسؤال الذي يطرح نفسه ما حقيقة (الرؤى المنامية الأحلام) في الفن الروائي، وخاصة التاريخي منها؟، فالحلم هو أداة فنية وأحد البنيات التي تسير مع الحدث وتتغلغل فيه "وهو أن تكون للحلم خاصية الإزاحة بمعنى إبعاد واقع رديء تأباه الشخصية وتود التحرر من سطوته، والتخلص من وطأته". (3) وهذا ما جعل السارد يغوص في أغوار الشخصية عبر متاهات اللاشعور يسند إلى العقل الباطني مهمة الكشف وتتبع مسارات الشخصية وأحلامها، وذلك عن طريق الرؤيا المنامية.

أسباب توظيف (الرؤيا المنامية الأحلام) في السرد الروائي:

لعل من أهم الأسباب في اعتقادي هي الهروب من الواقع ومرارته، إذ يعتبر الحلم "من الظواهر الفنية في الرواية التي يعتمد عليها الكاتب، وتكمن أهمية الحلم في الرواية والقصة في الانتقال بالحدث والشخصية من مرحلة إلى مرحلة أخرى حيث توظف هذه الظاهرة دلالة مباشرة في تأكيد هوية الشخصية، وميولها، وطموحاتها، ويكون الحلم أيضاً محاولة من الكاتب طرح قضايا وآراء جديدة مستمدة من واقع الأشخاص وتساعد في دفع الحدث وتنميته بالإضافة إلى ما يحدثه الملل والرتابة عن الأحداث". (4)

وفي تقديري أن الحلم مجرد رؤية منامية تنبعث من الشعور الداخلي، وهو الإحساس الذي يولد حالة تتطلع إلى معرفة المزيد ليرحل الذهن والإحساس معاً إلى عالم ما وراء الغيبيات، وعند تناول الشخصية أثناء السرد ورواية الحالة، والتنبؤ بمستقبلها في الأحلام أو ثمة إحساس يخالغ النائم، ويسعى لإدراكه، لكونه مستحيلاً وصعوبة تحقيقه، وبذلك يكمن دور الروائي في جعل الشخصية الفاعلة في المشهد تتحرك ضمن أطر يحددها الروائي.

ويتبع الأسباب الدافعة إلى الأحلام المنامية يتضح أن الحلم "في ضوء الدراسات النفسية مؤسس على رغبة Ausir في امتلاك ما قد افتقده السارد ويرغب في استعادته أو التخلص مما هو موجود في حياته من رداءة تتعين في واقع مزدهم وماهول بالمشاكل والمتاعب والصعاب". (5)

- أهمية الرؤيا المنامية في السرد الروائي -

ويمكن إدراك أهمية لغة الحلم في الكتابة الأدبية، فهو "ملجأ هروبي تحتمي فيه الذات بالمرغوب فيه في لحظات النوم أو الصحو من هذه الهشاشة للتخلص من كل القيود التي تحاصر حريتها، لكن دون قطع كل الصلات بالواقع، بل يقتصر على إزاحته بتدخل من اللاوعي ليكون سيد الموقف". (6)

لكي يدفع السارد بالحدث الي واقع يرتضيه، ويحدد مصير الشخصية من البداية حتى تتطابق الأحداث مع الرؤى التي تأتي عبر السرد.

"وللحلم المنامي أهميته أيضاً في علاقته بالكاتب والشخصية الفنية على أساس أن الكاتب يصوغ أفكاره بواسطة الشخصية الفنية ويعبر عن هواجسه من خلالها، وعبر توظيف الحلم قد يعيد صياغتها ثانية وفق مسار أحداث الرواية أو بشكل يتعمد معها في الاتجاه لقول ما لا يقال أو التعبير عن المرغوب، مما قد يتحقق وقد لا يتحقق أو عن فكرة أو الفكر المعاكس، ويجعل الحلم وسيلة مثلى لذلك". (7)

وتتطلع الشخصية من خلال الحلم وعبر الذات إلى الزمن الآتي للخروج من صدمة الحياة وقسوتها، فتبنى عليه طموحاتها بطرق غير مباشرة كلما تعذر عليها الأمر مباشرة، ومن هذه المفردات المعبرة المباشرة التي يلجأ إليها "رأيت فيما يرى الرائي" و "رأيت في المنام" و "حلمت". (8)

وتعتمد الرؤيا المنامية في الرواية على التخيل لإبراز الصورة التي يمكن أن تبني عليها الشخصية طموحاتها، وتستمر الرؤيا بوقائعها حتى النهاية، وفي بعض الأحيان يصيب الشخصية هاجس يدعوها إلى التوقف بسبب خيبة الأمل والفشل.

وهنا يرتبط عالم التخيل لدى الروائي بالتوقعات التي تبرز في ذهن القارئ وتظهر على شكل قوالب متشابهة من الاحتمالات والنتائج التي تحققها الشخصية، ومدى علاقتها بالأشخاص الآخرين، ولكن قد يصطدم القارئ بأشياء لا تكون في مخيلته وتأتي في أثناء السرد لتحدث فيها انعراجات وتجاوزات بين المحيطين حول الشخصية البطل مما قد يجد القارئ صعوبة في النقاط التفاصيل التي أصبحت متشابهة بعض الشيء. ولأن هذه الرؤى المنامية تمثل "قوة خارقة على إزاحة هموم الواقع الرديء الذي عاشته الشخصية الفنية قبل النوم، وهذا الواقع يشكل ضغطاً على كاهل الشخصية وفي داخلها، ولذا تجب إزاحته، وإلا حدث (الخلل الذهني) الذي يتسبب في إرباك علاقة الشخصية بما ومن حولها من موجودات حية أو جمادية". (9)

ونلمس في الكثير من الروايات يتحول البطل فيها إلى شخصية عدائية سلبية، وبذلك تعكس على سير الحدث وينتهي بنهاية حزينة مؤلمة.

- توظيف الرؤيا المنامية في رواية التبر لإبراهيم الكوني:

ومن الروايات التي تزخر بتوظيف الأحلام رواية (التبر) (لإبراهيم الكوني)، والتي يحتوي جزء كبير منها على التراث بمصادره المتنوعة، الدينية، والاجتماعية، والتاريخية، والأسطورية، والشعبية المتمثلة في الأمثال، والحكم، وقد تناولها العديد من الباحثين على سبيل المثال: الدكتور محمد رياض وتار في كتابه توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة فلماذا يمكن أن نعدّها مصدراً من مصادر التراث المتنوع. وبتغلغل الحلم في ثنايا السرد الروائي بطريقة متباينة، ومتباعدة في هذه الرواية، فلم تكن الرؤيا المنامية على وتيرة واحدة منذ البدء، بل جاءت على شكل فقرات لكل واحدة منها لها خصوصيتها، وأحياناً قد يلجأ إلى التفسير لتلك الرؤى عن طريق الأشخاص الذين يمكن الاعتماد عليهم في السرد الروائي.

ونلاحظ ذلك في المقطع التالي:

"فكر طويلاً في هذه الإشارة، أحلام الأضرحة تستدعي خبرة العرافين في التفسير، الشيخ موسى فهميم في رؤى المقابر الإسلامية، أما عرافو (كانوا) فوحدهم يتخصصون في قراءة الرؤى التي توحى بها الأضرحة القديمة ... الأضرحة الوثنية". (10)

ويحدد الكوني الشخص الخبير بمعرفة الرؤى، وذكر بأن الشيخ موسى مثلاً هو المفسر لهذه الرؤى، وأيضاً "جده لأمه شيخ حكيم إذ رأى رؤيا في نومه لا يغادر فراشه حتى يأتوا له بالعرافين ويفسروا له الرؤيا". (11)

وهذا الشيخ الحكيم يأتي بالعرافين لكي يفسروا له الرؤيا، وهكذا كانت بداية الرواية (التبر) لإبراهيم الكوني التي بدأها بالرؤى وتفسيرها، و"يوظف الكاتب بعضاً من الكوابيس التي تنتابه بصورة شبه متصلة في النص ... بحيث يقع الراوي فريسة لمشاهد حلمية مروعة". (12)

وتبدأ الشخصية (البطل) في صنع خطواتها الأولى لتحقيق حلمها، ولكن يظهر عند الكوني عنصر المفاجأة والاصطدام لدى الشخصية البطل (أوخيد) منذ البداية، حتى نلمح أفعاله تنعكس بالسلبية على من حوله، وهذا ما يشكل لديه هاجس الخوف من المستقبل المجهول.

ويتضح ذلك من خلال الرؤية المنامية المفزعة في النص الروائي التالي:

"ويقال إن الموت أيضاً لم يفاجئه، رأى في منامه أنه يقف تحت السدرة الأسطورية الضائعة في غرب الصحراء ويشرب من ماء البحيرة، فقال له العرّاق في الصباح: أعد نفسك للرحلة، إنها سدرة المنتهى، فحضر كفته وغسل جسده وارتدى أفخر لباسه وانتظر ملك الموت، وظلّ يفعل ذلك كل يوم حتى لفظ أنفاسه بعد أسبوع من تاريخ الرؤيا". (13)

وبناء على هذه التوقعات أصبح الهاجس لدى (أوخيد) ويربك مسيرته وأبلقه هذه الرؤية، ولكنه لم يمنعه أن يمضي في طريقه ويلتقي شخص آخرين تربطهم معه علاقات اجتماعية من قبيلته رغم كل الرهانات والعقبات.

وبين ثنايا السرد يحاول الكوني بين الفينة والأخرى توظيف الرؤيا (الحلم) في مقاطعه السردية التالية: "رأى في الحلم جمرات الموقد تسبح فوق ماء وفير دون أن تنطفئ، ثم وجد نفسه يسبح بجوار الجمرات المنطفئة فاختلف الحلم بالحقيقة لما صحا من نومه". (14) تخيل في نومه ذلك، وكأنه في حالة صحو عندما اختلط الحلم بالحقيقة، فهو ما بين النوم والصحو.

وأيضاً قوله:

"توقف الحلم في شبابه. توقف فجأة ثم نسيه، وقد عاد في أول ليلة اختطف فيها نعسة بعد حديث عابر السبيل وتتابع الحلم ثلاث ليالي متتالية والآن فقط.. بعد عودة الحلم رأى بوضوح الثالوث الغامض الذي يخيفه الظلمة، والسقف المهدهد بالانهيار، والكائن المجهول. (15)

والملاحظ في كل المرات السابقة إن الرؤيا المنامية عند النوم توحى بانحدار الشخصية إلى الحياة السلبية، لهذا جاءت الرؤى متتالية، إلا أنه "الحلم توقف في اليوم الرابع برغم أنه نام نوماً مزعجاً مضطرباً" (16) ولعل الأمر يتعلق بالأحداث التي تمر بها الشخصية منذ البداية، وحسب رؤية الكاتب التي تحدد الشخصية ودورها البطولي في النص السردي، وربما لأن البطل يقوم بدوره السلبي في حياته، فجاءت الرؤى على هيئة كوابيس مخيفة، ولأن البطل وأبلقه (الجمل) يعيش صراعاً بين الخير والشر، وحياة مليئة بالتناقضات صار لابد من جعل الرؤى المنامية تظهر على هيئة كوابيس.

وفي النص الروائي تعاود الرؤية المخيفة في الظهور مرة تلو الأخرى قضى الليلة الأولى بعد الحادث في الخلاء، هناك عادت الرؤيا المهاجرة الرؤيا التي هجرته في الليلة الرابعة بعد الخبر الكائن الخفي القابع في ثنايا الظلمات المظلمة المحبوسة في بيت الأنقاض... بين الطين المهدم... (17)

هذه الكوابيس التي تعاود في كل مرة قد بدأت بالرحلة مع الأبلق (الجمل) عبر الصحراء ومع أبنائها الطوارق، ويمكن اعتبارها إشارة إلى العواقب التي تنتظره، وبالرغم من عدم استسلام البطل ظل متماسك حتى النهاية المأسوية.

وفي النص الروائي نلاحظ ذلك "وأعجب ما في الرؤية الأخيرة أنها لم تكن رؤيا بدأها غافياً وواصلها مستيقظاً واعياً مفتوح العينين.. تعمد أن يفتح جفنه كي يعبر الحلم ولكن الظلمات استمرت كثيفة والسقف الذي يمشي عليه يهتز ويهدد بالسقوط، والكائن الخفي يوميئ ويوحى بوجوده دون أن يظهر... (18)

هذا ما بين حلم النوم واليقظة، و لعل هذه الرؤية التي مرت أمام عينيه كانت مخيفة ومرعبة، لوجود ذلك الكائن الحي الذي يظهر ويختفي، صار هذا الكابوس ملازماً له حتى في صحوه، لأنه لم يغمض جفنه، ويمكن أن ندرك عدم انسجام شخصية (أوخيد) و (أبلقه) مع الواقع بشكل يوحي بعدم الرضا عن الحياة، وهذا ناتج عن ظلم أوخيد لأهله ووالديه، وعصيانه لهما، وكذلك لم يكن وفيماً للذئب، وربما كان الطمع، والظلم، وعقوق الوالدين، والكثير من القضايا أراد الكوني إبرازها من خلال شخصية (أوخيد) و (الأبلق) الجمل، والصحراء بطقوسها وعاداتها صورة للشخصية السلبية والضعيفة، وبذلك تأتي الرؤى المنامية باستمرار دون انقطاع، حتى أصبحت هذه الشخصية في حالة سيئة، وهو لا يدري ماذا تخبئ الأيام له، لعل هذه الرؤى مجرد تخيلات تتحول فجأة إلى واقع، فيجيء عالم الواقع أصدق من عالم الحلم أو الرؤية، فهذا الأبلق يخوض في الحروق والدم وسموا وجهه أيضاً، شقوا فكه الأيسر المشتعل، فتأكل ونز منه الدم" (19) أما أوخيد بطل الرواية كانت نهايته مؤلمة والرؤية متوافقة مع الحدث تماماً، "قيدوا يديه ورجليه بالحبال، جاؤوا بجملين شدوا اليد اليمنى والرجل اليمنى إلى جمل، وشدوا اليد الأخرى والرجل اليسرى إلى الجمل الآخر.

صاح البدين:

السوط ! السوط !

أحرقوا أجسام الجمال بالسنة السياط، قفز أحدهم نحو اليمين وقفز الآخر في الاتجاه المضاد، وجد نفسه في البرزخ، سقط من حافة البئر

زحف الجسد الممزق الدامي زحفت الأشلاء، اجتث الجمل الأيمن، الجمل الأقوى، فخذ أوخيد الأيمن وذراعه اليمنى انتزعتا من المنبت ... جاء آخر وأمسك بالرأس الحاسر طار السيف في الفضاء، واغتسل بماء السماء بأشعة الشمس القاسية ونزل على الرقبة.

انشطرت الظلمة بالقبس المفاجئ ضربت بين الظلمات زلزال، انهار الجدار الفظيع بضربة سيف النور، فتبدى الكائن الخفي ولكن بعد فوات الأوان، لأنه لن يستطيع الآن أبداً أن يحدث أحداً بما رأى" (20) وبتوظيفه للرؤية والكوابيس المخيفة، والتي لا شك لها دلالاتها الرمزية والتعبيرية، فقد توحى بالإحباط والخذلان، فتمضي هذه الشخصية عكس قناعاتها وتسعى لامتلاك التبر، وهو الذهب الذي كان نقمة عليه، لأنه استبدله بأهله، فنال عقابه جزاء طمعه، وكان لا بد من اصطناع الرؤيا لتؤدي دورها.

وتستخلص من كل هذه الرؤى تلك اللعنة التي حلت بالبطل وأبلقه، وكانت سبب البلاء وفي النص التالي يتضح ذلك: " لقد أخذ التبر، وفك رهن الجمل وسلم امرأته وولده لرجل غريب يدعي قرابة ربما كانت مزعومة لقد وقع ضحية سهلة في الفخ (21)

ولهذا يمكن القول بأن ".... الرؤيا مادة يستطيع الكاتب من خلالها أن يجعل الأحداث تتجزأ وتشكل عوامل أخرى يثرى الموضوع بها، وتجعله ذا أبعاد مختلفة، ومن الناحية الفنية تعد الرؤيا عنصراً ثابتاً يظل ملازماً للشخصية في مراحلها التطورية المستقبلية". (22)

وعلى كل حال يظل الكتاب يستخدمون الحلم والرؤى في رواياتهم وجعلها خيطاً ينسج عبره الأحداث المستقبلية للشخصيات بما يخدم الموقف والقضية التي يريد الكاتب عرض أفكاره والوقوف عليها.

وترتبط الأحلام بالتخيل الذي يصاحب الكاتب، ويمكن أن نستدرك بقول (فرويد) في كتابه (الهذيان والأحلام في الفن) بأن "الحلم رغبة متحققة، وإن الروائيين عندما يستعملون الأحلام في رواياتهم؛ فإنهم يحاولون التعبير عن التجربة اليومية التي تدل على أن تفكير الناس وانفعالاتهم تستمر في الأحلام، وأن النفس النائمة تختلج استجابة للانفعالات التي تلبث فيها كبقايا من حياة النهار واليقظة". (23)

ولهذا كان على الروائي في رواية التبر أن يوظف الرؤيا المنامية (الحلم)، لأنه يرتبط بالواقع التخيلي في السرد الروائي.

- توظيف الرؤيا المنامية في رواية الأرامل والولي الأخير لخليفة حسين مصطفى:

وفي رواية (الأرامل والولي الأخير) لخليفة حسين مصطفى يبدأ الحدث برؤية إرتأها الشحاذ لصديقه (يوسف القهوجي)، و"الذي يدعى بأن في إمكانه رؤية أحلامه وكوابيسه أيضاً تمشي وتتقاذف على الأرض كالصيصان تحت أقدام الناس". (24)

والملاحظ اعتماد الروائي منذ البدء على الرؤية، إذ تساعد على الاستغراق في بواطن الشخصية لتؤدي دورها حتى النهاية.

وفي رواية (الأرامل والولي الأخير) تظل الرؤية متناسقة وعلى وتيرة واحدة متصلة بعضها ببعض، ولهذا يتم توظيفها لتعيد تشكيل الأحداث وصياغتها وفق رؤية مسبقة.

وركز الروائي فيها على استرجاع حقبة تاريخية مهمة من تاريخ ليبيا، فترة العهد القرمانلي الثاني، وتحديدًا حكم يوسف باشا القرمانلي، ويبدو أن فترة الحكم هذه ارتبطت بالحقيقة، وهي بالتالي دليل على مدى صدق المعلومة التاريخية وصياغتها صياغة سردية تخيلية، "وكأنه فعلاً يرى حلمه غير المنطقي في صورة واقعية" (25)

وتبدأ الشخصية الفنية رحلتها من رحم المعاناة ومنطلق الجمود في مجتمع تسوده الصراعات وتتقاسمه المطاعم، ويشكل الواقع ضغطاً على كاهل الشخصية وفي داخلها.

ومن المفارقات العجيبة الرؤية التي ارتاها صديق يوسف (الشحاذ) له منذ الصفحات الأولى في الرواية، وهو يطالعنا على مستقبل بطل الرواية ورسم ملامح الشخصية عند الرؤية "لقد رأيتك رؤيا العين وقد أصبحت والياً على البلاد لا دونك ولا بعدك، وال بفوطة وثياب ملطخة ببقع الشاي والقهوة، ولا أدري ماذا أيضاً". (26)

وتبدأ الشخصية خطواتها الأولى انطلاقاً من هذه الرؤية لتحقق حلمها، وقد جاءت عن طريق السؤال "هل أنت المدعو يوسف القهوجي؟". (27)

وتمضي الأحداث حتى تصير إرهابات واستشراف تبنى عليه الوقائع، لتبدأ الشخصية (يوسف القهوجي) بطل الرواية بالانتقال من مرحلة لا وعي إلى وعي، وذلك عن طريق التخيل وإيراد المعلومة التاريخية المتخيلة، أراد السارد أن يستعيد فترة زمنية ليمضي بالشخصية إلى واقع جديد يرتاضه البطل في الرواية، بأن يظل والياً على البلاد ويحقق الانتصارات، على الرغم من وجود الصعوبات والصدمات التي مرت به عبر الأحداث، ويصطدم بواقع مرير عاشته الشخصية في الماضي ويستمر حتى النهاية، ولعل هذا الواقع نتج عنه تسخير الرؤى المنامية في تحويل الشخصية من ذلك الواقع إلى حلم يخرج به من حالة الجمود وعهد مضى بالتغيير عما كانت عليه هذه الشخصية في الماضي، وبهذا يؤسس بؤرة للانطلاق "هناك في بؤرة الضوء يرى فيما يرى النائم جثة صديقه المرحوم يوسف القهوجي مسجاة في وضع مريح على كرسي ضخم مبطن بالجلد لا يمكن أن يوجد ما يماثله إلا في دار الخلد". (28)

تتحول الرؤية إلى حقيقة على الرغم من وجود بعض المخاوف إلا أنه سينال الخطوة ويصبح الوالي على البلاد، وذلك على إثر طواف المنادي الرسمي بأزقة وحواري المدينة مبشراً الأهالي باسم الوالي الجديد الذي ما إن تسلم زمام الأمور في هذا الوطن المفدى، وبالفعل تسلم زمام الأمور وأصبح الوالي على البلاد (29)

ويتحقق الحلم حتى صار واقع وحقيقة للإعلان عن تولية يوسف القهوجي الحكم (يوسف باشا)، وهذه اللحظة هي الفاصل بين الحلم والواقع، وبعدها انتقل إلى زمن آخر معالمه تظهر تباعاً من شخصية يوسف القهوجي الذي كان يدير مقهى النجمة ومن عامة الناس إلى شخصية مرموقة لها كيانها بعدما آلت إليه أمور الحكم تغير حاله، وبين الشك والريبة وعدم التصديق من قبل الناس والأحاديث التي تسري عبر المقاطع السردية ".... رفعت العناية الإلهية إلى سدة الحكم". (30)

ربما كانت هذه المفاجأة تكمن في عدم قدرة صديقه على التصديق أيضاً "حين علم بعد ثلاثة أيام بأن القهوجي قد جيء به إلى القلعة بالقوة لكي ينصب والياً على البلاد فكر بذهول بأن هذه مرحلة أخرى من عصر الخرافات التي يطبق على عقول الناس". (31)

وتدرجياً يتم احتواء الحدث، وتنتقل الشخصية عبر الرؤية إلى واقع وحياة أخرى محفوفة بالمخاطر، ومجابهة القوى، وهذه هي أهم المخاطر التي واجهت الوالي "لقد وجد يوسف القهوجي أن عليه خوض حرب غير معلنة في اتجاهين... فقد طور بحارته أساليبهم في قطع الطريق على السفن التجارية الأوروبية والأمريكية مدفوعين بما كانوا يجنونونه من مكاسب طائلة متأتية من البضائع والأسرى التي يسوقونها لحسابهم الخاص، وكانوا في نفس الوقت يستخفون بالإنذارات التي توجه إلى سيدهم الباشا من بعض الدول الأوروبية محذرة إياه من تمادي أسطوله فيما كانوا يسمونه في رسائلهم الرسمية بالقرصنة البحرية". (32)

ولأن "غاية الرواية باعتبارها تعبيراً فنياً هي تجسيد الحياة الإنسانية بصورها المختلفة على نحو أعمق وأخصب... بل كانت الغاية الأساسية من إبداع الشخصيات الروائية بأن تمكننا من فهم البشر ومعايشتهم" (33)، فقد تأتي الرؤية مصاحبة لحالة البطل وعلاقاته بالآخرين، وأحياناً يشارك الآخرين إحساسهم وانفعالاتهم مما قد يترتب على ذلك مشاركة شخصية من الشخصيات الثانوية المحيطة بالبطل في عمليتي

التخيل عبر رؤية منامية أو أحياناً يفسح المجال للتخيل أن يبرز دوره في تحقيق الرؤية من عدمها حتى تصبح أحداثها حقيقية تتوافق مع الواقع، وفي حقيقتها حكاية سردية يختلط فيها التاريخ مع الواقع والأسطورة مع الحياة حاضرها ومستقبلها، يجعل فيها الزمن حكماً على مصائر البشر، ويحاول فيها الأديب تسجيل تجربة الإنسان في زمن مضى، ولكن ما من شك لا وجود لعمل روائي تاريخي إلا فيه اكتشاف للتجربة الإنسانية وأسرارها". (34)

وبعدما تحصل (يوسف القهوجي) على القوة التي حاول بها مجابهة الأعداء، وتحولت الرؤية إلى واقع ملموس، واتخذ الروائي بذلك من الحلم سبيلاً في الرغبة على التغيير، والخروج من حالة الجمود إلى حالة أكثر انفتاحاً تمثل في واقع (يوسف القهوجي)، والبيئة التي كان يعيش فيها، بأحلام محدودة، وضيقة إلى شخصية مغامرة "كتب يوسف القهوجي رسالة مقتضبة إلى الرئيس الأمريكي يطالبه فيها بمعاملة بلاده على قدم المساواة مع بقية الدول المطلة على حوض البحر المتوسط في الأهمية والاحترام" (35)

تسير الرؤية المنامية عبر خطوط متوازية، وتعود إلى التاريخ، حتى يمكن أن تتجزأ في عملية سردية تتوافق مع الحدث، ولكنها تدريجياً حتى تصل إلى مستوى تحقيق الحلم "ولكن ماذا يمكن أن يضيفوا إليه بعد أن طار بجناح الصدفة من المقهى الذي يغمره الغبار والذباب ورائحة عرق زبائنه المتسخين ليحظ في رعاية الله على كرسي الحكم، وبعد أن أخضع جنرالات البحرية الأمريكية لشروطه في الصلح وألحق بغريمه ... (36) استطاع بطل الرواية (يوسف باشا) أن يحقق انتصارات وصدقت الرؤية، وأصبح ذا نفوذ وقوة لا يستهان بها، فانتسعت أمواله، مما حفزه إلى المضي قدماً إلى أقصى مراتب الأمنيات التي أوصلته إلى هذه الطريق، ولعل أهم شيء توصل إليه بأن المال يمثل القوة ويعد الوسيلة التي يحقق بها انتصاراته.

والملاحظ أن الرؤية المنامية حلقة متصلة، وتجري في مسار السرد مقارنة بين (يوسف القهوجي) في الماضي وما آلت إليه أحواله، وهكذا تسدل الستارة، وتنتهي الرواية بنهاية حزينة مفعجة ليوسف الذي بدأت به، وانتهت الأحداث المأسوية بفقدانه لكل شيء.

فالحلم يتدرج، وينمو، ويصعد حتى يصل إلى عالم التصديق الذي يحمل معه الحادث المفاجئ والصدفة والمخاطر والأقدار التي شاءت أن تغير الواقع، ولتحقيق هذه الرؤية منذ البدء يرسم الروائي ملامح الحدث جنباً إلى جنب مع بنية السرد، ثم يهبط تدريجياً فقد أدرك مؤخراً عبث حياته، لقد خسر أبناءه الثلاثة، وضع قرنفة، ولم يعد هناك ما يتعزى به في عزيزة، ولم يعد بحاجة إلى من يذكره بأنه انتهى، وقد عاد يتيماً كما كان يتيماً حتى من أحلامه وأوهامه القديمة" (37) عاش حياة الفقر والعدم، وانطلق برؤية تبدو في شكلها العام والنهائي بنية متخيلة خاصة داخل البنية الحديثة الواقعية أو بتعبير آخر أكبر عينية وتحديداً هي تاريخ متخيل داخل التاريخ الموضوعي، ورغم الاختلاف في الطبيعة النبوية للزمن بين المتخيل والموضوعي، فإن بين الزمنين أو التاريخين علاقة ضرورية أكبر من تزامنها هي علاقة التفاعل بينهما". (38)

وفي الحقيقة نجد اختلاف عميق في تناول السرد، وخاصة الرواية التاريخية وعملية توظيف الرؤية لها، لأن الأديب لا يجب أن يتقيد مما يتقيد به المؤرخ عليه أن يجمع بين الحقيقة والخيال ويعتمد على الوقائع التاريخية في إثراء الحدث، وبذلك يفسح لخياله المجال لأن ينطلق وفق مسارات يحددها في بنية السرد برؤية جديدة تساهم في إزاحة الستار عن العديد من القضايا، وتعرية الواقع، ولهذا يتم توظيف الرؤيا المنامية (الأحلام) في بعض الروايات، وهذا ما أكدته العديد من الأبحاث العلمية حول الرواية وبنية السرد في الرواية التاريخية.

وبذلك نتوصل إلى أهم النتائج لهذا البحث وهي كالتالي:

_ وكان الاستخدام للرؤية المنامية (الأحلام) في الرواية لها انعكاساتها المستقبلية على الشخصية، وهذا ما نلاحظه لدى (خليفة حسين مصطفى) في روايته الأرامل والولي الأخير حين تتحول فيه الرؤية من صدفة

إلى حقيقة، يسير فيها الحلم عبر أحداث الرواية في رؤية تخيلية وفي نهاية الرواية تعاود الرؤية في الظهور مرة أخرى عن طريق شخصية العجوز ورؤيتها له، من حياة بائسة وشخصية محطمة فاقدة لكل شيء، ولكن الأمر يختلف تماماً عن الكوني في روايته (التبر) حيث يترك للقارئ مساحة بتتبع حالة الشخصية (البطل) حتى النهاية، ولم يستخدم الرؤية المنامية منذ البداية، بل تظهر عبر ثنايا السرد، وبعد عدة صفحات نلاحظ بوجود هذا التوظيف، وحتى الرؤية التي تتبع من خلال الرواية كانت تأتي متفرقة، وبما يخدم القضية التي يسعى البطل في الحصول عليها أو العقاب الذي ينتظره؛ فجاءت في بعض الأحيان على شكل كوابيس مخيفة.

_ يلجأ الروائي في الرواية التاريخية تحديداً إلى توظيف الرؤيا المنامية للتخلص من قيود الواقع، حيث تساعد في تطور الأحداث، ومن خلال الرؤية يطرح الروائي قضايا وآراء جديدة، وبهذا يمكن أن ندرك الأسباب التي جعلت الروائي يستخدم الرؤية المنامية (الأحلام) في سرده الروائي.

_ ويكون الحلم في بعض الأحيان رغبة متحققة يضيف على الرواية شكلاً ملموساً يمكن تصديقه ويحفز على جذب القارئ وشد انتباهه، وكثيراً ما يستخدم في الرواية التاريخية للهروب من الواقع وذلك عبر الإسقاطات التي تظهر في ثنايا النص السرد، والأفعال التي يقوم بها الأشخاص كل ذلك يعكس رؤية الكاتب في كيفية جعله من التجارب رؤى وأحلام يوظفها في روايته.

_ وتكمن أهمية الحلم وإبراز وظيفته من خلال علاقة الكاتب بالشخصية التي تقوم بالدور البطولي أو الثانوي في الرواية.

_ ويستخدم الروائي تعبيرات أثناء السرد عبر الشخصية التي تؤدي الدور (رأيت) أو (رأيت فيما يرى الراي) أو (رأيت في المنام) وتمثل الخيط الذي يشد به أجزاء الرواية وأحداثها المتفرقة.

_ ويعتمد الروائي في السرد في بعض الروايات مثل رواية التبر (لإبراهيم الكوني) والأرامل والولي الأخير (لخليفة حسين مصطفى) على توظيف الرؤية المنامية، وجعلها الركيزة في عملية الكشف عن المضمون بواسطة الشخص وحدث، وكل هذا يحمل بصماته الزمان والمكان.

_ ويبدأ السرد منذ البداية برؤية منامية ويكون البطل المحور الأساسي في ذلك كما هو الحال في رواية (الأرامل والولي الأخير) لخليفة حسين مصطفى.

ولكن تظل بعض الروايات بعيدة عن هذا الاتجاه، إذ تكون فيها الرؤى والأحلام متقطعة ومتباعدة، ولكنها تدخل في صميم الأحداث أثناء السرد، كما هو الحال في رواية التبر لإبراهيم الكوني، والتي من الممكن اعتبارها رواية إنسانية تحكي عن إنسان الصحراء وحياته المعيشية وقضايا المصيرية.

ويمكن القول: بأن الرواية الخالصة كثيراً ما تعول على الرؤية المنامية حتى وإن كانت متباعدة في بعض الأحيان، إلا أنها تصب في ذات الحدث وتعالج العديد من القضايا.

وفي هذا البحث ومن خلال هذا التوظيف (الرؤيا المنامية) في الفن الروائي، وتحديدًا في رواية (التبر) لإبراهيم الكوني، ورواية (الأرامل والولي الأخير) لخليفة حسين مصطفى، كان من الممكن إيضاح سبل هذا التوظيف.

_ وفي رواية التبر لإبراهيم الكوني، والتي كثيراً ما يلجأ فيها الروائي (الكوني) إلى الانغماس في التراث بمصادره المختلفة عبر الفضاء المكاني (الصحراء) بطبيعتها الخاصة، والتي جرت فيها الأحداث، ووظف فيها الرؤيا للتعبير عن طبيعة المكان، فلماذا جاءت على شكل مقاطع نصية متباعدة عن طريق شخص ثانوية سعى الكاتب لإظهار بعض الحقائق ويعرج فيها على بعض القضايا التي تخدم طبيعة العمل الروائي، والمصير الذي ينتظر البطل.

_ وفي بعض الأحيان يوظف الكوني الأحلام، وتأتي على شكل كوابيس يصطدم بها بطل الرواية لأنها تعبر عن مصيره.

وكان لا بد من توظيف الرؤى المنامية عبر الشخصيات كالشيخ (موسى) الذي يلجأون إليه في تفسير الرؤى (الشيخ الأكبر سناً)، وأيضاً في إيراد بعض المعلومات عن حياة الطوارق وتفسير الرؤى المنامية وخاصة ذات الطابع التاريخي كالعرافين والشيوخ في الصحراء، لأنهم في نظر الروائي أكثر دراية وخبرة في الحياة وطبيعة الصحراء ومجتمعها.

_ والملاحظ أن (الكوني) عول كثيراً في روايته (التبر) على التراث بمصادره الدينية والتاريخية والأسطورية.

_ وكان المحور الأساسي في روايته صراع الأقدار، وهو صراع بين الخير والشر، بين الحياة والموت، فجاءت النهاية مأسوية حزينة للبطل الإنسان (أوخيد) والحيوان (الأبلق) وهو الجمل.

_ وعلى العكس تماماً لدى الروائي (خليفة حسين مصطفى) في روايته (الأرامل والولي الأخير)، فقد بدأ السرد الروائي منذ البداية برؤية منامية إرتاها صديق يوسف القهوجي بطل الرواية له، بأنه سيصبح والياً على البلاد، وكانت الغاية من ذلك رسم طريق الشخصية، وتحديد مساراتها، وجعلها تتحرك ضمن أطر يحددها، وخطوط موازية لمضمون السرد، وقد اعتمد على المعلومة التاريخية، فجعل البطل التاريخي (يوسف باشا القرمانلي)، برؤية تخيلية سردية مرتبط بالزمان والمكان معرجاً على عهد سابق لعهد يوسف القهوجي في وصفه لبعض الجوانب من الحياة، وواقع يوسف باشا في زمنه، وهنا ندرج في عملية التخييل بين ربط الماضي بالحاضر، وتحول الشخصية من عهد إلى عهد في زمنين مختلفين، ولما آلت عليه فيما بعد، ويعد هذا استشراف الحياة للبطل عبر الأزمنة.

وينطلق الروائي عبر بنية متخيلة برؤية منامية يهدف من خلالها إلى تعرية الواقع وطرح القضايا أيضاً. _ وعبر الحلم أو الرؤية المنامية يعيد الروائي صياغة الحدث صياغة أخرى جديدة حتى يتسنى له البوح وإظهار ما لا يمكن إظهاره أو قوله، ولهذا يجعل الحلم وسيلة يخلق بها إلى فضاءات وعالم متخيل يتحقق بشخوص ينقلون أفكاره ويتحركون عبر كل الفضاءات.

_ وبهذا تسهم الرؤية المنامية في إضفاء قيمة فنية على الحدث، وغالباً ما ترتبط بالزمن. _ وبذلك ترتبط الرؤى والأحلام بعملية التخييل لدى الروائي في الإبداع الفني الروائي، ويمتزج فيها الخيال بالواقع.

وعلى كل حال تعتبر الرؤية المنامية أحد البنيات الأساسية أو التقنية الفنية التي يعتمد عليها الكاتب في تحريك الحدث.

والله ولي التوفيق

المصادر والمراجع :

- 1- نجات بوتقوت، (بناء الشخصية الفنية في الرواية التاريخية المغربية) رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، 2011، ص 120.
- 2- نادر أحمد عبد الخالق (الشخصية الروائية بين علي باكثير ونجيب الكيلاني دراسة موضوعية وفنية) ط1، كفر الشيخ، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، 2009م، ص 415.
- 3- حسن البنداري، (البنيات الكاشفة عند نجيب محفوظ) من عام 1979م، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، 2004م، ص 129.
- 4- نادر أحمد الخالق، (الشخصية الروائية بين علي باكثير ونجيب الكيلاني)، ص 44، مرجع سابق.
- 5- حسن البنداري، (البنيات الكاشفة عند نجيب محفوظ)، ص 150، مرجع سابق.

- 6- ينظر نجات بوتقوت (بناء الشخصية الفنية في الرواية التاريخية المغربية)، ص 121، مرجع سابق.
- 7- ينظر المرجع السابق، ص 126
- 8- ينظر المرجع السابق، ص 121.
- 9- حسن البنداري، (البنيات الكاشفة عند نجيب محفوظ)، ص 126، مرجع سابق.
- 10- إبراهيم الكوني، رواية التبر، ص 30، ص 31، مصدر سابق.
- 11- المصدر السابق ص 31.
- 12- إبراهيم الفيومي، قراءة نقدية في الرواية العربية، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، الأردن، ط 2001، م، ص 315.
- 13- إبراهيم الكوني، رواية التبر، ص 31، ص 32.
- 14- المصدر السابق، ص 70.
- 15- المصدر السابق، ص 134.
- 16- المصدر السابق، ص 135.
- 17- المصدر السابق، ص 143.
- 18- المصدر السابق، ص 143.
- 19- المصدر السابق، ص 158.
- 20- المصدر السابق، ص 160.
- 21- المصدر السابق، ص 136.
- 22- نادر عبد الخالق، (الشخصية الروائية بين علي باكثير ونجيب الكيلاني) ص 115، مرجع سابق.
- 23- شاكر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، ص 282، مرجع سابق.
- 24- خليفة حسين مصطفى، رواية الأرامل والوالي الأخير، ص 18.
- 25- المصدر السابق 17.
- 26- خليفة حسين مصطفى، المصدر السابق رواية الأرامل والوالي الأخير، ص 18.
- 27- المصدر السابق، ص 20.
- 28- المصدر السابق، ص 64.
- 29- المصدر السابق، ص 67.
- 30- المصدر السابق، ص 122.
- 31- المصدر السابق ص 146.
- 32- المصدر السابق ص 177، ص 178.
- 33- ينظر روجر ب هينكل، قراءة الرواية، ترجمة: د. صلاح رزق، أفاق الترجمة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط 2، مايو 1999م، العدد 56، ص 216.
- 34- ماجد السامراني، من الرواية العربية أفق غريبة، السنة الثانية، العدد 7، اذار 1977م، ص 88.
- 35- خليفة حسين مصطفى، رواية الأرامل والوالي الأخيرة، ص 208.
- 36- المصدر السابق، ص 411.
- 37- المصدر السابق، ص 415.
- 38- إبراهيم عباس، تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية في بنية الشكل، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار، 2002، ص 97.